الفصل الأول

الخلافة الإسلامية بين المثال والواقع

تمهيد:

كان العصر الأول من تاريخ الإسلام، منذ قام الرسول ﷺ يدعو إلى ربه حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، هو عصر النبوة لما فيه من صفات معينة تميزه عن غيره من العصور التى تحققت فيها المثل العليا للإسلام بأكمل معانيها.

وقد انقسمت هذه الفترة إلى مدتين فصلت بينهما الهجرة، ولم يكن من التمايز ما يزعمه بعض المستشرقين، بل كانت الفترة الأولى منهما ممهدة للثانية.. ففى الأولى وجدت نواة المجتمع الإسلامى التى تقررت فيها قواعد الإسلام الأساسية بصفة عامة، وفى الثانية تم تكوين هذا المجتمع، وأكمل التشريع بإعلان مبادئ جديدة، حتى ظهر الإسلام فى هيئته الاجتماعية وحدة منسجمة عاملة تهدف إلى غايات واحدة.

فى هذا العصر (عصر النبوة) لم تكن هناك ضرورة لظهور آراء شخصية أو نشوء نظريات سياسية.

وهكذا انقضى عصر رسول الله ﷺ بين الوحدة والعمل والتأسيس، وأقام النموذج للقدوة والقياس، مع تواجد عوامل للاجتهاد ونشوء النظريات أهمها:

١- طبيعة النظام الاجتماعى الذى أقامه الرسول ﷺ.

٢- إقرار مبدأ حرية التفكير للفرد.

٣- تفويض الأمر للأمة فيما يتعلق بتفاصيل هذا النظام.

يشمل هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: لمحات من تاريخ الخلافة الإسلامية فى عصور الصحابة والتابعين.

المبحث الثانى: نظريات فقهية حول الخلافة فى عصور الصحابة والتابعين.

المبحث الثالث: نهاية الخلافة العثمانية وحتمية إيجاد البديل.

المبحث الأول
لمحات من تاريخ الخلافة الإسلامية
في عصور الصحابة والتابعين[1]

خلافة أبي بكر رضي الله عنه:

روت كتب التاريخ ما دار في اجتماع السقيفة ولا خلاف على أن الاجتماع انتهى إلى انتخاب أبي بكر الصديق ليكون الخليفة الأول في الإسلام.

وهي خلافة تمت باختيار المسلمين ورضاهم واجتمعت عليها كلمتهم وقد كانت استمرارًا لعهد رسول الله ﷺ، لأن أبا بكر سار على النهج الذي رسمه رسول الله ﷺ وقال:

إني والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته.. وقال في أول خلافته «إنما أنا متبع ولست بمبتدع».

ولما شعر أبو بكر بقرب وفاته، وكانت الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة قد بدأت في عهده وجيوش المسلمين مشتبكة في القتال مع الفرس والروم، وخشي أبو بكر رضي الله عنه أن تتفرق الكلمة في هذا الوقت العصيب، رأى أن مصلحة المسلمين توجب أن يعقد العهد بالخلافة لأحد الصحابة حتى لا يحدث ما حدث من خلاف في اجتماع السقيفة عقب وفاة الرسول ﷺ، فاختار أقوى وأكفأ الصحابة لقيادة المسلمين في هذا الموقف وهو عمر بن الخطاب.

لكن لم يتم له العقد إلا بعد أن شاور الصحابة أوأهل الحل والعقد في هذا الاختيار.

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

روى الطبري وغيره من المؤرخين خبر مشاورة الصحابة، وذكر أن أبا بكر دعا عبد الرحمن بن عوف فقال: «أخبرني عن عمر» فقال: يا خليفة رسول الله هو

---

(١) من كتاب النظريات السياسية الإسلامية د. محمد ضياء الدين الريس.

والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ثم دعا عثمان بن عفان فقال له أيضًا «أخبرنى عن عمر» فقال: «اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله».

كما دعا سائر الصحابة واستشارهم على هذا النحو فلما رأى موافقتهم على رأيه أملى على عثمان بن عفان كتاب العهد فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم- هذا ما عهد به أبو بكر للمسلمين فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرًا.

وهكذا تم عقد الخلافة لعمر رضى الله عنه بالشورى والاتفاق، وكان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته أثناء حكمه وقام عمر بالأمر خير قيام، وبدأ بإنفاذ وصية أبى بكر بانتداب المسلمين مع المثنى بن حارثة قائد جيش المسلمين فى حرب الفرس، ووجه عمر جيوش المسلمين نحو النصر فى جميع الجبهات، فكانت هناك وقائع اليرموك والقادسية وأجنادين وفتحت بلاد الفرس والشام ومصر.

ونظم عمر الإدارة والدواوين ووضع قواعد تفريق الأموال وحاسب الولاة وحكم بالعدل والشورى.

ولما حضرته الوفاة بعد أن طعنه المجوسى أبو لؤلؤة عهد إلى ستة من كبار الصحابة هم:

عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص.

وعثمان بن عفان، وعلي بن أبى طالب.

والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله.

عهد إليهم أن يجتمعوا ويتداولوا ليختاروا واحدًا منهم ليتولى الخلافة، وذلك بعد أن يقوموا باستفتاء الناس.

خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه:

بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فوضوا مهمة البحث واستشارة الناس إلى أحدهم، وهو عبد الرحمن بن عوف.

وبعد أن لبث يستشير الناس ثلاثة أيام وجد أن الأغلبية تفضل تولية عثمان ابن عفان، فدعا إلى اجتماع عام وعقد هذا الاجتماع فى المدينة، وبعد تبادل الرأى انتهى الاجتماع إلى مبايعة عثمان بالخلافة فبايعه الناس جميعًا وتمت له البيعة بالإجماع.

واستمرت وحدة المسلمين ولم يظهر من ينازعه فى الأمر، وكان علي رضى الله عنه ممن بايعه وظل الخليفة يستشيره فى كثير من الأمور، وسار عثمان على نهج عمر فى صدر خلافته، ووطد الفتوحات التى تمت وأضاف إليها وعم الرخاء فى عهده وزادت الثروة وظلت الأمور منتظمة.

ولكن فى أواخر خلافته حدثت بعض الفتن فى الأمصار، إذ ظهرت النزعات القبلية، فثار بعض الناس وقدموا إلى المدينة معترضين على بعض التصرفات، فقابلهم الخليفة باللين فأغراهم هذا بالتطاول.

وانتهى الأمر باغتياله مظلومًا رضى الله عنه، ولم يكن قد عهد لأحد، فحينئذ بدأ النزاع الذى أدى إلى الخلاف والانقسام حول الخلافة.

خلافة علي والحسن رضي الله عنهما:

أما بالنسبة لخلافة علي فإن البيعة له تمت فى ظروف الفتنة، ومع أنه كان أفضل الصحابة فى ذلك الوقت وأحقهم بالخلافة إلا أن الظروف كانت غير مواتية.

وقد بايعه أهل المدينة، عدا فريق من الصحابة امتنعوا عن المبايعة، وكان من المبايعين الثوار الذين خرجوا على عثمان واشترك بعضهم فى دمه، ثم بايعه أهل الحجاز والعراق، لكن أهل الشام بقيادة معاوية الذى كان واليًا عليهم، وهو أحد الصحابة ومن قواد الفتوح فى الشام امتنعوا عن المبايعة، ولما كان علي رضى الله عنه يعتقد أن خلافته صحيحة فقد رأى واجبًا عليه أن يقوم بتوحيد الدولة وإخضاع الخارجين عليه، فجرت المواقع المعروفة بينه وبين بعض الصحابة الذين رحلوا إلى العراق، وبينه ومعه مؤيدوه من أهل الحجاز والعراق وبين معاوية ومعه مؤيدوه من الشام، وبينه وبين الخوارج أيضًا، ثم انتهت الأحداث باغتيال علي رضى الله عنه على يد أحد الخوارج فى الكوفة، فخلفه ابنه الحسن رضى الله عنه.

ولكن بعد نحو عام تم الصلح بينه وبين معاوية وتنازل عن مطالبه بالخلافة، فتم أمر الخلافة لمعاوية منذ ذلك التاريخ، وكان أهل الشام قد بايعوه بالخلافة من قبل، عقب حادث التحكيم.

وسمى هذا العام، عام الجماعة لاجتماع الأمة على خليفة واحد.

خلافة معاوية رضى الله عنه:

هناك إجماع على أنه بعد عصر الخلفاء الراشدين حدث تطور أو تغيير حيث إن تولى معاوية الخلافة لم يتم فى الأصل بالمبايعة الحرة أو الاختيار من جميع الأمة، وإنما بايعه أهل الشام الذين كانوا فى ولايته ثم سائر الناس الذين بايعوه بعد عام الجماعة، ولكن هذا فى حقيقة الأمر كان اعترافا بالواقع وحرصًا على حفظ وحدة الأمة، هنا دخل عنصر القوة والاضطرار بدل الاختيار التام أو الشورى.

هنا يمكن القول بأنه حدث التفارق بين المثال والواقع، وأن الخلافة أخذت تنحرف فى الملك من حيث الأساس الذى تقوم عليه.

لكن معاوية كان من الصحابة، وصار له قدم فى الإسلام حيث كان من المجاهدين فى الفتوح الإسلامية فى الشام، وكان الذى عينه على ولاية الشام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، إذ عرف فيه الكفاءة والقوة، وقد أثبت معاوية فعلاً كفاءة فى الإدارة وبراعة فى السياسة ودافع عن الدولة الإسلامية ضد الروم.

وبعد أن استقر له الأمر واصل السياسة نفسها فى أثناء خلافته وكان يعمل على اجتذاب الناس له بالكرم والحلم، وإن كان قد خرج من القاعدة أحيانًا واستعمل الشدة مع من خرج عليه.

وقد استأنف الفتوحات كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين، حتى أمكنه أن يحاصر القسطنطينية عاصمة دولة الروم.

خلافة يزيد بن معاوية:

حدث تحول جديد أو انحراف آخر للخلافة نحو الملك أو ما يشبهه وذلك حين رأى معاوية أن يعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد، وهو بذلك أدخل مبدأ الوراثة على الخلافة، وهنا زاد البعد والتفارق بين الخلافة المثالية والخلافة الواقعية.

ونظرًا لخطورة هذا التحول فإنه ينبغى إيضاح كيف نشأ ذلك وماذا كانت أسبابه ومبرراته؟

تذكر كتب التاريخ أن ابتداء ذلك كان من المغيرة بن شعبة الذى أشار على معاوية بتولية ابنه يزيد قائلاً له:

يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفى يزيد منك خلف ما عقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة فشرع معاوية فى ذلك.

لكن زيادا والى البصرة كتب إليه يشير عليه بالتؤدة وأن لا يعجل، فقبل منه ذلك.. لكن بعد موت زياد قوى عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد بولاية العهد.

فكتب إلى مروان بن الحكم والى المدينة، وباقى عماله أن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار (البصرة والكوفة والمدينة) فحدث اجتماع وتكلم الخطباء فأعربوا عن تأييد البيعة، وبايع أكثر الناس ليزيد، وكان ذلك عام ٥٦هـ.

لكن كبار الصحابة فى الحجاز لم يبايعوا يزيد وهم: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس.

وتذكر بعض الروايات عن حديث منسوب للنبى ﷺ كأنه كان نبوءة عما كان سيحدث فى المستقبل، ويستشهد كثير من المؤلفين بهذا الحديث وهذا القول هو:

«الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا عضوضًا» ويرى الدكتور محمد ضياء الدين الريس أنه حديث ضعيف لأنه خبر واحد أى مروى عن واحد وأضاف: بأنه من المرجح أنه قول مأثور لأحد التابعين أو لبعض المؤرخين.

وكانت وصية معاوية لابنه يزيد: إنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين ابن علي، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.

أما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسًا شيئًا قبلك، وأما الحسين فرجل خفيف، وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وله قرابة من رسول الله ﷺ فإن قدرت عليه فاصفح عنه.

وأما ابن الزبير فإنه حف ضب فإذا شخص لك فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحًا فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت.

وآلت الخلافة إلى يزيد بعد وفاة أبيه عام ٦٠ هـ فى هدوء ولكن لم يمض قليل حتى ظهرت المعارضة، وبدأت الثورة فى العراق والحجاز.

فقد تحركت الشيعة فى العراق واجتمعوا عند زعيم لهم بالكوفة، وقرروا أن يكتبوا إلى الحسين يدعونه للقدوم إليهم ليبايعوه، فكتبوا إليه مائة وخمسون صحيفة.

ولما كان الحسين لم يبايع وغير موافق على تولية يزيد، وأن يتحول الحكم إلى الأسرة الأموية، فقد رأى من واجبه أن يلبى الدعوة.

وجرت الأحداث، فبعث إليهم الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل لكن ابن زياد والى العراق استطاع أن يقبض عليه فقتل، ولما توجه الحسين إلى العراق قابله الشاعر المشهور «الفرزدق» فسأله ما بال أهل العراق؟ قال له: قلوبهم معك وسيوفهم عليك، ورغم هذه النصيحة فلم يرجع واستمر إلى العراق وقابله جيش أرسله ابن زياد، ولم يكن مع الحسين غير أهل بيته وبعض أنصار له. فقتل، وقد هزت هذه المأساة الدامية قلوب الناس، وكان لها أثر عميق ونتائج بعيدة المدى.

وبعد مقتل الحسين شرع عبد الله بن الزبير يدعو الناس إلى نفسه بمكة، وهو يريد أن يعيد الخلافة إلى موطنها الأصلى فى الحجاز، فبايعه كثير من الناس، وأرسل يزيد جيشًا من الشام لإخضاع الثائرين فى المدينة، ثم ذهبوا لمقاتله ابن الزبير بمكة، وفى أثناء الحصار جاء الخبر بموت يزيد عام ٦٤هـ.

خلافة معاوية (الثانى) بن يزيد:

تولى الخلافة وبويع بدمشق، لكن عبد الله بن الزبير أعلن الدعوة إلى نفسه جهرة بمكة، فبايعه أهل مكة وأهل المدينة، وأصبح الحجاز منفصلاً عن الدولة، لكن معاوية هذا كان ضعيفًا أو مريضًا، فلم يستطع أن يفعل شيئًا، ولم تطل مدته أكثر من ثلاثة شهور، وتوفى وهو ابن إحدى وعشرين سنة ومات دون أن يعهد بالخلافة لأحد.

وتذكر بعض روايات الشيعة أنه تنازل عن الخلافة وقال: إن جدى معاوية نازع الأمر أهله (ويقصد بذلك علي بن أبى طالب).

مؤتمر الجابية وخلافة مروان بن الحكم:

عقد هذا المؤتمر عام ٦٤هـ بالجابية (مكان بين الأردن ودمشق) وكان مؤتمرًا تاريخيًا له أعظم النتائج فى تاريخ الخلافة والإسلام.

هذا المؤتمر يشبه مؤتمر السقيفة، فى أن الناس قد اجتمعوا فى حرية ليتشاوروا فيمن يسولونه عليهم إماما أو خليفة، وإن كان هذا المؤتمر قاصرًا على أهل الشام لكن دمشق كانت حينئذ مركز الدولة.. استمر هذا المؤتمر أربعين يومًا، وكان حسان ابن مالك يصلى إمامًا بالناس، فكان بمثابة رئيس للمؤتمر.

وقد عرض المجتمعون أسماء المرشحين:

فذُكر عبد الله بن عمر وقدمه فى الإسلام ولكن قيل إنه رجل ضعيف، وعُرض ذكر عبد الله بن الزبير فذكرت فضائله.. ولكن قيل إنه نكث بيعته وخلع خليفتين هما يزيد وابنه معاوية. وذُكر خالد بن يزيد فاعتُرض عليه لصغر سنه.

وأخيرًا بعد المداولات والمشاورات استقر الرأى على اختيار مروان بن الحكم.

انتخبه المؤتمر خليفة وإمامًا للمسلمين بالإجماع، وكانت أسباب اختياره أنه شيخ قريش فى ذلك الوقت، وسيد بنى عبد مناف وكبير بنى أمية وابن عم الخليفة المظلوم عثمان بن عفان، والذى دافع عنه يوم الدار والمطالب بدمه إلى جانب ما يعرفونه من تقواه وكفاءته وشجاعته.

خلافة عبد الملك بن مروان:

توفى مـروان بن الحكم عام ٦٥هـ بعـد أن تمكن من ضم مـصر إلى خـلافتـه بالشام، وكان قـد اتفق عليه حين بويع للخلافة أن يكون الأمـر من بعده لعمـرو ابن سعـيد بن العـاص من بنى أميـة، ثم لخالد بن يـزيد، لكن مروان وجـد بعد الخلافة أن الأسلم والأكـفل للاستقرار أن يكون الأمـر فى بيت واحد والعودة إلى الوراثة المباشـرة، فاستشـار أولى الرأى فى الدولة بموافقتـهم عقد العهـد من بعده لابنيه: عبد الملك فعبد العزيز، وعند وفاته آلت الخلافة بالاتفاق إلى ابنه عبد الملك ابن مرون، وقد كان عبد الملك كفؤًا لتولى هذا المنصب الجليل.

عبـد الملك بن مروان صاحب ابن الزبيـر أعظم الناس عدالة، وناهيك بعـدالته احتجـاج مالك بفعله وعدول ابن عبـاس وابن عمر إلى بيعـته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز.

فعـبد الملك من أعظم خلفاء الإسـلام والعرب، وكان يقـتدى فى تنظيم الدولة بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

فى عهده انتهى أمر عبد الله بن الزبيـر بمقتله عام ٧٣هـ، واجتمعت الأمة ثانيًا على خليفة واحد ولذلك سمى عام ٨٤هـ عام الجماعة الثانى، وفى عهده استمرت الفتوحات شرقًا وغربًا، وفى عهده تم تحرير بلاد المغرب من احتلال الروم، وحطم شوكة الخوارج وقضى على دولتهم.

خلافة الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز:

ظهرت عظمـة الدولة والإسلام فى خلافة الوليـد بن عبد المـلك إذ كـان عمه عبد العزيز بن مرون قد توفى من قبل.

وتوالت الفتوحـات فى المشرق والمغرب حتى بلغت حدود دولة الإسـلام جبال البرانس غـربًا وحدود الصين شـرقًا، فكانت دولة الإسلام أكـبر وأرقى الدول فى العالم، وفى عهده فتحت الأندلس التى كان لها أثر كبير فى نقل الحضارة إلى بلاد الغرب.

وخلفه أخوه سليمان فواصل نفس السياسة، ولم تطل مدته وكانت أجل مأثرة أسداها للأمة أنه لم يعهد بالأمر لأحد من أولاده، ولكن عهد بالخلافة لأفضل القوم فى ذلك الوقت وهو عمر بن عبد العزيز وهو المثل الكامل فى التقوى والورع.

أعاد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه رونق الإسلام وحدد حياة الدولة على أساس من العدل والعمل لصالح الأمة الإسلامية.

كان عهده غرة فى جبين الدولة الأموية، ويعتبره المؤرخون الخليفة المتمم لعهد الخلفاء الراشدين (خامس الخلفاء الراشدين).

هذه هى السيرة العامة للخلافة أو التطورات التى مرت بها من قيام نظام الخلافة فى اجتماع السقيفة، وتباعا حتى نهاية القرن الأول الهجرى، هذا العهد كله كان هو عصر الصحابة والتابعين حيث بلغت دولة الإسلام والخلافة ذروة مجدها فى أواخر هذا القرن، ويكتفى بتتبع أطوار الخلافة حتى هذا الوقت.

يقول ابن خلدون:

إن الخلافة وإن كان قد شابها عنصر من الملك وتحولت من أصول الشورى إلى الوراثة -فإن معانيها أو مقاصدها أو حقيقتها قد بقيت.

فإن كان حدث خلاف أو انقسام من حين لآخر فإن الدولة استمرت فى سيرها، وأحكام الشريعة الإسلامية فى الجملة منفذة، والإسلام محتفظ بعزته وقوته، وهو ينتشر ويعتنقه الأفراد والجماعات فى جميع الأنحاء، لما تشعر به الشعوب من حكم العدالة والمساواة وحفظ الكرامة بدل الظلم والقهر والطغيان الذى كان يحكم به من قبل دولتا الفرس والروم وغيرهما.

*****

المبحث الثانى

نظريات فقهية

حول الخلافة فى عصور الصحابة والتابعين[1]

ويجمل بنا أن نبين أهم النظريات التى تكونت فى هذا العصر والتى أسفر عنها هذا الخلاف.

ونشير إلى ما سيكون لكل منها من أثر فى تطور الفكر وفى حياة الجماعة المستقبلية.

أولاً: خلع الولاة:

فى أواخر خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه بدأ الاضطراب فى الكوفة، وقام فريق من أهلها ينادى بضرورة عزل الوالى وهو الوليد بن عقبة الأموى (أخو عثمان لأمه)؛ لأسباب ظنية بأنه كان يسمر مع ابن زبيد الطائى الشاعر النصرانى الشاب ويعاقر معه الخمر، وشهد عليه بعضهم، فأمر عثمان بحده مع أنه كانت هناك قرائن تدل على براءته قائلاً «نقيم الحد ويذهب شاهد الزور للنار».

ثانيًا: رد دعوى قريش:

ظهرت أفكار سياسية فى إنكار دعوى قريش فى امتيازها على سائر العرب، وأحقيتها بالخلافة والإمارة وامتلاك الإقطاعات الواسعة، عبر عن ذلك قوم من الأزد: من اليمن ومن تميم ذاهبين إلى أن الخلافة وغيرها ينبغى أن تكون مشاعًا بين كل المجاهدين فى سبيل الإسلام.

ثالثًا: عبد الله بن سبأ وآراؤه: (الملقب بابن السوداء)

رجل يهودى من أهل اليمن اعتنق الإسلام تظاهرًا أو عن عقيدة، تقول الروايات أنه طاف بعواصم البلاد الإسلامية داعيًا إلى نظريات مشبوهة من بينها: لكل نبى وصى، وعلي وصى محمد، ثم قوله إن عثمان أخذها بغير حق، ثم بدأ

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية دكتور محمد ضياء الريس.

يخوض فى حق الأئمة (أبو بكـر وعمر) ولما بلغ علياً ذلك قال: «مـالى وما لهذا الحميت الأسـود الذى يكذب على الله ورسوله» هذه الـشخصـية لا عـلاقة لـها بالشيعـة، فالشيعة الحـقيقية ظهـرت بعد ذلك، ومن تبعه فى كتب التـاريخ سموا بالغلاة أو السبئية. وينبغى أن ينظر إليهم على أنهم فرقة خاصة.

رابعاً: نظريات أبى ذر فى الأموال:

دعا هذا الصحابى الجليل إلى نظرية لها خطورتها الاجتماعية والسياسية، كانت مبنيـة على اجتهـاده وفهمـه لروح الإسلام، وصدى مـا آلت إليه أحوال المجـتمع الإسلامى بعد الفتوحات.

فقد رد على معاوية والى الشـام قوله «إن المال مال الله» وقال: كأنه بذلك يريد أن يحتجن من دون المسلمين وكـان يذهب إلى أن المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثـر من قوت يومـه وليلته، أو شىء ينفقـه فى سبيل الـله، أو يعده لكريم ويستشهد بالآية الكريمة. ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ومازال يدعو إلى رأيه هذا حتى ولع الفقـراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وشكا هؤلاء ما يلقـون منهم فسيَّره مـعاوية إلى المدينة ثم استـأذن فى الخروج إلى الربذة وهى إحدى ضواحيها ليعتزل.

خامساً: بدء ظهور الأحزاب:

بعد انقضاء عهد عثمان ومبايعة علي بالخلافة انقسم العالم الإسلامى على أثرها إلى معسكرين كبيرين أحدهما شايع عليا والثانى أيد معاوية.

ولا شأن لنا فى التفاصيل هنا فهذا يرجع إلى التاريخ السياسى.

سادساً: حادث التحكيم:

خلاصة هذا الحادث أن مـعاوية أمر جنده وقد اشتد القتال فى مـوقعة صفين بأن يرفـعـوا المصـاحف على رءوس الرمـاح ونادى منـاديهـم: هذا كتـاب الله عز وجل بيننا.

وبعدها وقع الخلاف فى صفوف جيش علي واشتدت الآراء، فذهب قوم إلى أنه ينبغى قبول هذا العرض وموافقة الخصوم إلى مطالبهم، وكان على رأس المدافعين على هذا الأمر الأشعث بن قيس الكندى، وطالب آخرون بوجوب مواصلة القتال، وحذروا من أن تكون هذه خدعة وهذا ما كان يراه علي رضى الله عنه بعد ما بدت له تباشير النصر. لكنه تنازل عن رأيه لإلحاح الفريق الأول.

وبعد تفاوض بين الجانبين رضي أهل الشام «عمرو بن العاص» نائبًا عنهم، ورضى أهل العراق «أبا موسى الأشعرى» ممثلا لهم، ثم كتب عقد التحكيم وأعلنت الهدنة ستة أشهر إلى أن يجتمع الحكمان.

وكان لقبول علي رضى الله عنه التحكيم رغمًا عنه سببًا فى خروج عدد كبير من جيشه (بلغوا اثنى عشر ألفًا) ففارقوا معسكره وتوجهوا إلى «حروراء» بدلاً من «الكوفة» وهى ضاحية لها.. وهنا نشهد نشأة الخوارج.

واجتمع الحكمين بعد انتهاء الهدنة. تقول الروايات كانت نتيجة التحكيم أن خدع عمرو بن العاص صاحبه أبو موسى الأشعرى.

وفى رواية لأبى الحسن المسعودى أنهما اتفقا على خلع على ومعاوية، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى لاختيار من يصلح.

واضطر سيدنا علي رضى الله عنه أن يحارب فى جبهتين: إحداهما كانت «النهروان» ومات شهيدًا بضربة أحد الناقمين عليه وهو «ابن ملجم».

وتكشفت هذه الحوادث المتتابعة عن ثلاثة أحزاب:

١- حزب الملكية الوراثية.

٢- حزب الخوارج.

٣- وحزب الشيعة الملتف حول علي وبنيه.

سابعًا: الخوارج وآرائهم:

سمى هؤلاء الخوارج بالحروراء ثم بالخوارج نسبة إلى خروجهم إلى المدائن فى العهد الأموى سمو أنفسهم بالشراة أى الذين شروا أنفسهم أى باعوها فى سبيل الله.

هؤلاء الخوارج يعترفون بانعقاد بيعتى أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ويتولون سيدنا عثمان ست سنوات من خلافته، ثم يتبرأون منه بقية عهده. ويحكمون بصحة بيعة علي رضى الله عنه، ويتولونه إلى أن قبل التحكيم.

وهم بذلك حكموا بالكفر على سيدنا عثمان وسيدنا علي وسيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص، وأرادوا قتلهم جميعًا.

ثامنًا: نظريات الشيعة:

كانت أول فرقة شيعية ظهرت ولها هذه المميزات هى:

الفرقة الكيسانية: أسسها كيسان مولى علي بن أبى طالب أو محمد ابنه، وقد ألفها عقب مقتل الحسين، وقام يدعو إلى الالتفاف حول «محمد بن علي» الملقب بابن الحنفية، وكان من أثر وجود الشيعة الكيسانية قيام الدولة العباسية.

فى بداية القرن الثانى اختلف محمد الباقر مع أخيه زيد بن علي بن الحسين، ومن أهم ما اختلفا عليه مسألة الاعتراف بإمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ونشأ من هذا الاختلاف فرقتان هما:

١- الإمامية: ويقال عنها الرافضة إما لرفضهم إمامة الشيخان وإما لرفضهم زيدًا، وزعيم هذه الحركة وهو «جعفر الصادق بن محمد الباقر».

٢- الزيدية: أهم أتباع زيد، وتحمل هذه الفرق علم الجهاد.

وبذلك يتم ظهور الفرق الرئيسية للشيعة وهى:

١- الكيسانية.

٢- الإمامية.

٣- الزيدية.

٤- الإسماعيلية.

٥- ويزيد عليهم الغلاة، وهم فى الحقيقة ليسوا منهم بل يخرجها غلوها عن دائرة الإسلام نفسه.

تاسعًا: نشأة المعتزلة:

فى مقدمة التطورات التى حدثت فى أوائل القرن الثانى الهجرى تكونت فرقة جديدة كان لها الأثر فى تاريخ الفكر الدينى والإسلامى ألا وهى فرقة «المعتزلة».

تروى كتب التاريخ كلها حادث انفصال «واصل بن عطاء» عن أستاذه «الحسن البصرى»، وأن الأخير قال حينئذ: «اعتزلنا واصل».

هذه الرواية ثابتة بالتواتر ولا نشك فيها إلا أنها ليست إلا جزءًا من الحقيقة.

أما الحقيقة الكاملة فهى أن واصلاً اختلف مع أستاذه فى مسائل عديدة فى مقدمتها مسألة القدر، ولم يكن الاختلاف عن قصة مرتكب الكبيرة وحدها بأنه فى منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن ولا هو كافر.

وكانوا يسمون بالقدرية أو العدلية، وكانوا هم يدعون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، لقولهم باختيار العبد فى فعله، ونفس صفات الله

عاشرًا: أهل الحديث والسنة:

للحسن البصرى آراء سياسية روتها كتب التاريخ، وهو يستحق الاهتمام باعتباره أحد التابعين.

وهو ينتمى من حيث العقيدة إلى مذهب أهل السنة وهو كان من بين العلماء المشتغلين بعلوم الحديث والفقه، ولم يكونوا فرقة لأنهم لم يتجمعوا حول راية واحدة - بل كانوا مجتهدين متفرقين - كلا له نهجه.

كان الحسن البصرى يترحم على عثمان بن عفان ولا يذكر علياً إلا بخير، وكانت له مآخذ على كل من معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة.

روى عنه أنه قال: أفسد أمر هذه الأمة اثنان:

عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف. والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد. ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة.

إحدى عشر: فرقة المرجئة:

نشأت كرد فعل لمغالاة الخوارج فى عقيدتهم، ومن أقوالهم المأثورة:

«أنه لا تضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا تنفع مع الكفر طاعة.

ويمكن أن نعبر عن مذهبهم بلغة العصر بأنه مذهب «التسامح» أى التسامح الدينى بين طوائف المؤمنين فى حدود الإسلام.

*****

obeikandl.com

المبحث الثالث
نهاية الخلافة العثمانية
وحتمية إيجاد البديل

أولاً: الخلافة العثمانية

استمرت الخلافة عبر القرون فى العالم فى صورة أو أخرى - حقيقة أو شكلاً - حتى العصر الحديث.

وكان آخر صورة لها هى الخلافة العثمانية، ومع أن هذه الخلافة لم تنشأ فى الأصل نتيجة المبايعة الحرة العامة، بل قامت على القوة والغلبة، ولم تكن مستوفية للشروط التى يريدها الإسلام، وجرت على نظام الوراثة - إلا أنها ظلت تمثل قوة الإسلام ووحدة أكثرية المسلمين، وقامت طويلاً بواجب الدفاع عن الأوطان الإسلامية وحفظ كيانها.

وكان المجتمع الإسلامى قد صار على استعداد - لأن يعترف بالولاء لأكبر دولة إسلامية تقوم بواجب الدفاع عن الإسلام وأوطانه، ويعترف برئيس تلك الدولة على أنه الخليفة الواجب طاعته ومعاونته.

وهكذا كان اعتراف الجزء الأكبر من العالم الإسلامى بالدولة العثمانية ورئيسها خليفة للمسلمين.

ولكن لما اعترى الوهن هذه الدولة وضعفت عن القيام بواجب الدفاع الذى ينتظره منها المسلمون وجب أن تنتقل هذه القيادة لدولة إسلامية أخرى.

ثم انتهت الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى وانتهت خلافتها التى كانت مرتبطة بها.

كان هذا مجرد انتهاء دور فى تاريخ الخلافة، كما انتهت أدوار كثيرة، أما حقيقة أو نظام الخلافة نفسه فلا يمكن أن ينتهى مادامت الأمة الإسلامية موجودة والإسلام قائمًا.

محمد على باشا والخلافة العثمانية من خلال رؤية إسلامية:

أجمع المؤرخون فى تاريخ مصر الحديث على أن عصر محمد على باشا كان عصر النهضة والحضارة والعلوم فى الداخل، وكذلك الفتوحات فى الشام والحجاز والسودان مما جعل مصر نداً قوياً أمام الخلافة العثمانية، وقوة لا يستهان بها ضد أطماع دول الغرب.

لكن الأمور فى الميزان الإسلامى تختلف تمامًا عن تلك المظاهر الخادعة التى جعلت من قارون وفرعون وهامان أبطالاً وفرسانًا.

فقد دب الصراع الدنيوى بين خسرو باشا والى الدولة العثمانية على مصر ومحمد على باشا طيلة نصف قرن من الزمان، وكان للمماليك وعسكر الترك والألبان ودول مثل: إنجلترا وفرنسا وروسيا الدور الكبير فى هذا الصراع الأليم.. كل ذلك مع غياب الشريعة وشعب مصر الأصيل.

فماذا كانت النتيجة؟

لقد ذهبت هذه الفتوحات عبر الرياح، وتقلص ملك محمد على فى مصر بعد الهزائم المتتالية، واستدانت مصر فى عهد الخديوى عباس بسبب المظاهر الكاذبة وأصبحت مصر تحت أقدام أصحاب الأموال فى أوربا، ودخل الاستعمار الإنجليزى أرض مصر بعد هزيمة أحمد عرابى بسبب الخيانة وموالاة الخديوى توفيق للإنجليز.

أين كانت الخلافة الراشدة فى تركيا إذن؟

وأين كان محمد على باشا من شريعة الإسلام فى ظل تلك الخلافة غير الراشدة أو غير المأمولة؟

ثانيا: الخلافة فى العصر الحديث:

فإذا كان دور الخلافة قد انتهى، فإن من واجب المسلمين أن يعملوا لبدء الدور الجديد لها، خاصة وأن حقيقة الخلافة هى إقامة الدولة الإسلامية واستمرارها.

وإذا كانوا قد سموها. خلافة أو إمامة، فإنه يمكن الآن إطلاق أسماء أخرى تناسب التطور السياسى فى العصر الحديث.

إن إيجاد دولة أو قيادة عامة للإسلام فرض واجب على المسلمين أو ركن أساسى للدين.

ولا شك أن الأمة الإسلامية فى العصر الحاضر ومنذ انتهت الخلافة من تركيا - أى من نحو قرن - مقصرة فى أداء هذا الواجب ومتحملة نتيجة لذلك مسئولية أمام الله، والإثم واقع على الرؤساء والعلماء وأولى الأمر، لأن الوجوب يقع عليهم وهم المسئولون فى المرتبة الأولى عن حفظ الأمة والدين، وتنفيذ الواجبات التى يأمر بها الدين الذى يؤمنون به.

فالأمة الإسلامية تمر فى الوقت الحاضر بدور انتقال حتى نجد البديل، والفرض والوجوبية قائم، ووجودها ومصيرها يحتمان عليها أن توجد وحدة بينها بصورة ما وأن تضم جهودها وقواها لتصبح أمة قوية عزيزة بين الأمم، وتستطيع أن تستأنف رسالتها لنشر دين التوحيد والعدالة والفضيلة فى العالم لرقى الإنسانية والأخلاق، وتحقيق السلام والرخاء بين الشعوب والدول، وهذه هى رسالة الإسلام وهى رسالة عالمية.

وفى سبيل ذلك ليس شرطًا أن توجد دولة واحدة، بل إن علماء الإسلام أجازوا تعدد الحكومات أو الدول، وليس من الواجب أن تنحصر السلطة فى فرد أو أسرة، وليس من الضرورى الاحتفاظ بالمسميات السابقة، فإنه يأمرنا بالاتحاد وإقامة الإسلام على أساس الشورى.

ثالثا: مسائل مكملة حول الخلافة الراشدة والملك العضوض

الخلافة الراشدة لم تقم أبدًا على أساس القوة المادية والغلبة والقهر كما يزعم بعض المستشرقين.

وإنما كحقيقة تاريخية ظاهرة ومقطوع بها أن خلافة أبى بكر الصديق كانت باختيار الصحابة له بالإجماع.

وأن خلافة عمر بن الخطاب قامت بعهد أبى بكر الصديق الذى كان إمام المسلمين وموضع ثقتهم ، وبعد موافقة جميع المسلمين ومبايعتهم جميعًا للمعهود إليه، فتمت خلافته أيضًا بالإجماع.

وكذلك خلافة عثمان بن عفان بعد مداولة الشورى، وافق عليها المسلمون بالإجماع.

يزعم هذا البعض من المستشرقين أن عليا ومعاوية لم يتبوآ عرش الخلافة إلا تحت ظلال السيوف وأسنة الرماح.

هذا الكلام فيه مغالطة وغير صحيح لماذا؟

لأن عليا رضى الله عنه لم يشهر سيفه على الناس ليبايعوه، ولم يكن معه جيش.

وإنما كل من بايعه من المسلمين بايعه بالرضا والاختيار، ومن امتنعوا عن بيعته فى المدينة فقد تركوا فى سلام وهم معروفون بأسمائهم.

وكذلك الشأن مع معاوية، فقد كان واليًا على الشام محبوبًا لمدة عشرين عامًا، فبايعه الناس هناك بيعة صحيحة بالرضا والاختيار.

أما الخلاف الذى وقع بين علي ومعاوية بعد ذلك فلأن كل منهما كان يرى أنه أحق بالأمر ويريد توحيد الدولة، وقد أجمع الفقهاء فى ذلك الأمر بأنه اختلاف تأويل.

لقد كانت مبايعة الثلاث الأول من الخلفاء الراشدين بالإجماع، أما خلافة علي فكانت من فريق من المسلمين ولكن أيضًا برضاهم واختيارهم، وكذلك الأمر بالنسبة لمعاوية.

وهناك فرية أخرى ارتكبها البعض من المستشرقين، وهو أنه كانت هناك معارضة بعد أن تولى أبو بكر الخلافة.

فالحقيقة أنه لم يكن هناك خارج ولا منكر للخلافة.. فإذا أرادوا أن يشيروا إلى المرتدين فهؤلاء لم يكونوا منكرين للخلافة أو منازعين فيها، ولكنهم كانوا خارجين على الإسلام نفسه.

وهذا أمر طبيعى فى أول نشأة الإسلام إذ لم يكن الدين قد تمكن فى قلوب بعض الأعراب - كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، ثم انتهت الفتنة وقضى عليها، وعاد كثير من المرتدين فصاروا من أكبر المجاهدين العاملين من أجل الإسلام فى ظل الخلافة.

ولم يسمع أن أحدًا خرج على الخليفة عمر بن الخطاب، وإن قد حدثت بعض خلافات حول أرض السواد بالعراق:

هل تعد من غنائم المجاهدين أم تصير وقفا للمسلمين؟

وبعد المشورة كان الإجماع على أن تصير وقفا للمسلمين.

وقد حدث أن خرج بعض المسلمين فى آخر خلافة عثمان، وحدث الخلاف بعد ذلك بين علي ومعاوية.. ثم بعد ذلك فى عهود تالية.

وهذا دليل على الحرية التى أعطاها الإسلام لأهله، وهى حرية الأمر والاجتهاد.

ولنا هنا ملاحظة هامة وهو أن الإجماع ليس شرطًا فى المبايعة أو البيعة، بل تكفى أغلبية أهل الحل والفقه لاختيار الخليفة فلا منازع ولا منكر.

فمثلاً سيدنا علي كرم الله وجهه لم يبايع سيدنا أبا بكر الصديق رضى الله عنه يوم السقيفة لانشغاله بموت رسول الله ﷺ أو لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة.. وهذا حق لا يعيبه أحد.

لكن مع علمه بإجماع الصحابة بايع أبا بكر ثم عمرًا ثم عثمان بن عفان وكان محبًا لهم وسندًا لهم فى شئون الخلافة.

وقد كره وغضب على الذين كانوا يفضلونه على أبى بكر وعمر حتى كاد أن يحرقهم بالنار لأنهم خالفوا الإجماع وأثاروا الفتن دون أى تبريرات شرعية.

حتى إنه بعد مقتل سيدنا علي بن أبى طالب بايع أهل العراق سيدنا الحسن ابن علي على الخلافة.

وحقنا للدماء وحرصًا على جماعة المسلمين تنازل سيدنا الحسن لمعاوية بن أبى سفيان لتولى خلافة المسلمين، وسمى ذلك العام بعام الجماعة حيث توحدت الخلافة.

ولم يعترض سيدنا الحسين ولا أحد من الصحابة على ذلك مطلقًا، وكان منهم العبادلة الأربعة:

عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله ابن عمرو بن العاص رضوان الله عليهم جميعًا.

وكان معاوية صحابيًا ومن كُتَّاب الوحى، وجاهد من أجل الإسلام فى عهد الخلفاء الأول، فكان معظم الأمة راضين عنه، واستأنف الفتوحات كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين.

فكانت خلافته إذن مرتكزة على رضا الأمة لا على القوة الرهيبة.

لكن الفتنة الكبرى بدأت بعد محاولة معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد عن طريق حضور الوفود الذين يرسلهم الولاة إلى دمشق من الأمصار، فكانت الوفود تصل وتظهر موافقتها على المبايعة.

لكن الروايات تؤكد أن الحسين والعبادلة الأربعة وهم من الزعماء فى الحجاز، امتنعوا عن البيعة ولم يقبلوا أن يبايعوا حتى بعد أن حضر إليهم الخليفة بنفسه.

وإذا كنا نحسن الظن بأن يعهد معاوية لابنه بالخلافة خروجًا عن الشورى بلجوئه إلى طريق الوراثة خوفًا من تكرار النزاع أو نشوب الحرب الأهلية على نحو ما حدث فى مقتل سيدنا عثمان بن عفان.

فإن ذلك لم يكن مبررًا شرعيًا وخاصة إذا علمنا بأن سيدنا أبو بكر لم يعهد أمر الخلافة لابنه وكذلك عمر بن الخطاب.

وكان الأجدر به أن يختار من الصحابة ما يتم به الإجماع ولا يميل إلى ما أشار إليه المغيرة بن شعبة والى الكوفة.

وقد استمر الحكم بالوراثة أو الملكية بعد توريث الحكم ليزيد بن معاوية فى دول الخلافة الأموية، ثم العباسية، ثم الفاطمية، ثم الأيوبية، ثم العثمانية.

ولكن لا ننسى أن خلفاء أو ملوك الإسلام على العموم بعد عهد الخلفاء الراشدين كانوا أفضل وأعدل وأرقى من أباطرة وملوك الدول الأخرى فى أنحاء العالم.

فالخلفاء «عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعمر بن عبد العزيز والرشيد والمأمون، وكذلك السلطان نور الدين فى الشام، والسلطان صلاح الدين فى مصر» كانوا أسمى من ملوك أوروبا فى عصرهم، ولا نجد لهم نظائر فى تواريخ الأمم الأخرى فى العدل والصلاح والعمل من أجل الرعية.

حتى الوزراء مثل الصاحب ابن عباد ونظام الملك: كانوا وزراء علم وآداب وحضارة.

كما أن الفقهاء قد بحثوا كثيراً فى السياسة وأنتجوا مؤلفات عديدة قيمة واطلعوا على كتب اليونان وغيرهم وترجموا أهمها وشرحوه.

وبحثوا فى علم الإمامة والقضاء والجهاد، وتوالت المئات من المؤلفات في علم السياسة ومباحثه نذكر منها:

كتاب الماوردى: الأحكام السلطانية.

كتاب الرازى فى علم السياسة.

وكتاب الغزالى: التبر المسبوك فى نصائح الملوك.

وكتاب «المدينة الفاضلة» للفارابى.

والسياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية لابن تيمية.

والكتاب المشهور «مقدمة ابن خلدون».

وإحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى وفيه بحوث فى السياسة.

ولكن لا يفوتنى أن أذكر ثلاثة أسباب من الأسباب العديدة التى أدت إلى انهيار نظام الخلافة والخلافة العثمانية وهى:

١- أن الخلافة قد أصبحت ملك عضوض بالوراثة بدلاً من الشورى.

٢- أن الخلافة العثمانية لم تجعل من اللغة العربية لغتها الأولى.

٣- أن الحكم لم يكن بما أنزل الله فى كثير من الميادين فى أواخر أيام الخلافة.

لكن انتهـاء دور تركيا كان مجـرد دور فى تاريخ الخلافة كمـا انتهت أدوار من قبل.

أما حقيقة أو نظام الخلافة فلا يمكن أن يـنتهى مادامت الأمة الإسلامية موجودة والإسلام قائمًا.

وهذا ما سوف نتناوله فى الفصول التالية.

*****

obeikandl.com